

## فلسفة الاستعمار

بقلم

الدكتور ناصر الدين الأسد

( ١ )

بدأ الاستعمار الأوربي الحديث منذ أواخر القرن الخامس عشر الميلادي ومطلع القرن السادس عشر - عصر الكشوف الجغرافية ، حين امتلأ خيال أوربا بسحر الشرق وصارت تداعب نفوسهم رؤى لياليه المفعمة بالبندخ ونعمته التي تفيض بالترف . فشد إليه الرحالة المغامرون أشرعة مراكبهم ليروا بأعينهم ما امتلأت به نفوسهم من قصص الذين سبقوهم إلى ارتياده ، وطدحت إليه أهواء التجار لينقلوا إلى بلادهم حريره وجواهره وعطوره وبخوره وبهاره وتوابله وسائر أدوات الزينة ووسائل الترف ، واتجهت إليه أنظار الأمراء والملوك ليضيفوا إلى أملاكهم بلاداً جديدة تدخل في حوزتهم وتوسع من رقعة نفوذهم ، وواكب هؤلاء جميعاً رجال الدين من المبشرين لينشروا في هذه البلاد الشاسعة تعاليم السيد المسيح ، وليشيعوا في نفوس ساكنيها الطمأنينة لهؤلاء الوافدين عليهم ، وليكسبوا ولاءهم للدول التي يفقدون منها .

وتمثل لهم الشرق بهذه المعاني - أول ما تمثل - في الهند وما جاورها من بلاد وأحاط بها من جزر وسواحل . فكان همهم الأول أن يكتشفوا طرقاً بحرية جديدة يسلكونها إلى هذا الشرق - ويتجنبون فيها السير في ديار الإسلام والوطن العربي - الممر الطبيعي بين الشرق والغرب وحلقة الوصول التي تربط بين العالم بقراته الثلاث . وذلك لأن الوطن العربي الإسلامي كان آنذاك عزيز الجانب منيع الحمى . وقادتهم محاولاتهم هذه إلى أن يكتشفوا بلاداً ظنوها بادئ الأمر الهند أو الجزر القريبة منها ، ثم تبين لهم أنها عالم جديد لم يكونوا قد عرفوه من قبل . ونجحوا في أن يكتشفوا طريقاً بحرية تطوف حول إفريقية وتمر بطرفها الجنوبي - رأس الرجاء الصالح ، ثم تنتهي بهم إلى طلبتهم . وكان كل ذلك في السنوات العشر الأخيرة من القرن الخامس عشر الميلادي . وإذا كانت هذه السبل كلها بحرية فقد كان من الطبيعي أن تسبق إلى هذه الكشوف الدول البحرية القوية آنذاك : البرتغال وإسبانيا ، ثم تبعها إنجلترا وهولندا وفرنسا .

ثم بدأ عصر الآلة في أوروبا وما سببته من انقلاب صناعي . وبعد أن كانت الصناعة اليدوية لا تكاد تفي بحاجة الناس ، أصبحت الصناعة الآلية تفيض عن احتياجاتهم ، وصار لا بد لهذا الفائض من أن يجد له أسواقاً خارجية . ثم إن هذه الآلة التي تنتج ذلك الفيض من المصنوعات كان لا بد لها من خامات ومواد أولية أكثر مما تنتجه بلادهم لتلبي الطلبات المتزايدة وتناسب مع وفرة النتاج .

من أجل هذين العاملين معاً : وفرة الإنتاج ، والحاجة إلى الخامات ،

كان لا بدّ للبلاد الأوروبية التي تأثرت بالآلة والانقلاب الصناعي من أن تبحث لها عن أسواق خارجية تصرف فيها الفائض الإنتاج ، وبلاد جديدة تستمد من مواردها الخامات ، فوجدت بغيتها في تلك البلاد التي امتد إليها نفوذها ودمجتها في حوزتها منذ عهد الكشوف الجغرافية .

وتبع ذلك أمران كان منطق الحوادث يمايهما ، الأول : تأمين السبل إلى هذه المستعمرات باحتلال السواحل ، والبحزر التي تقع في طريقها .  
والثاني : تنصير السبيل إليها .

ولذلك كان من الطبيعي أن تتجه أنظار الاستعمار الأوربي إلى الوطن العربي لتحقيق هاتين الغايتين معاً ، ولغاية ثالثة تستتر في ثنايا الحوادث وقد تخفيها أحياناً ظواهر الأمور ، هي هذا الثأر القديم المتجدد بين هذا الوطن وبين أوربا ، والذي يبلغ ذروته في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين .

وتسلم زمام المبادرة دولتان أوروبيتان - كان لهما الدور الفعال في ذلك الثأر القديم - هما فرنسا وإنجلترا . بدأت فرنسا بمصر سنة ١٧٩٨ م بحملة نابليون فأخفقت ، فاتجهت بأنظارها إلى أطراف الوطن العربي البعيدة عن قلبه القريبة من بلادها فاحتلت الجزائر - أول جزء من الوطن العربي يدخل في حوزة الاستعمار سنة ١٨٣٠ م ، ولكنها لم تنس مصر وقلب الوطن العربي وإن اتبعت لذلك وسائل خفية غير الاعتداء المساح الظاهر ، وكان أن شقت قناة السويس بعد نحو ربع قرن من احتلال الجزائر .

كان شق قناة السويس أول كسب حقيقي يناله الاستعمار الأوربي في وطننا ، فتلد حقتت لهذا الاستعمار غايتين ، الأولى تقصير السبيل إلى المستعمرات الأوربية في الشرق ، والثانية فصل الجناح الأيمن للنسر العربي من جناحه الأيسر ، ولذلك كان من الطبيعي أن تحتل فرنسا تونس في سنة ١٨٨١ ، وأن تحتل بريطانيا مصر في سنة ١٨٨٢ ، وما كادت تمر السنوات الأولى من القرن التاسع عشر حتى كانت أجزاء الوطن العربي في شمال إفريقيا كلها ترزح تحت وطأة الاستعمار الأوربي باحتلال فرنسا لمراكش سنة ١٩١٢ واحتلال إيطاليا لليبيا في السنة نفسها .

وما هي إلا سنوات خمس بعد ذلك حتى تم للاستعمار الأوربي بسط نفوذه على الجناح الأيمن من الوطن العربي في أثناء الحرب العالمية الأولى ، فوقعت في قبضته العراق وبلاد الشام . وامتد نفوذه في أشكال وصور متباينة متفاوتة إلى قلب جزيرة العرب وسواحلها .

ذلك هو تاريخ الاحتلال العسكري في بلادنا ، لسناه لمساً عابراً ، ومرزنا به مرة موجزاً هيئاً ، ولم نتعرض لأجزائه الدامية ولا لتفصيلاته الملائم، بالتنافس بين دول الاستعمار الأوربي حين لا يكون ثمة خطر يهددها من غيرها ، فإذا ما دهمها الخطر ، إذا هذه الدول المتنافسة يد واحدة ومعسكر واحد ، غاياته وأهدافه واحدة ، بل إن معركته التي يخوضها - على تعددها - واحدة .

## (٢)

ولكن وراء هذه القصة القصيرة من الغزو العسكرى التى دامت من بدئها فى سنة ١٨٣٠ حين غزيت الجزائر إلى ختامها فى سنة ١٩١٧ حين تم احتلال باقى أجزاء الوطن العربى فى العراق والشام - وراء هذه القصة القصيرة من الغزو العسكرى التى دامت نحو ثلاثة أرباع القرن وطلد فيها أقدامه واستكمل أهدافه - قصصاً أخرى من الغزو العلمى مهتدت لانغزو العسكرى ، وحفت به ، ثم واكبته وسأيرته .

ولنبداً القصة من مطلعها :

منذ قرون قامت فى أوربا طبقة خاصة سميت المستشرقين لدراسة أحوال بلاد الشرق من جميع جوانبها . فعكف بعضهم فى بلادهم يدرسون فى كتبهم وكتبنا : تاريخنا ولغتنا وأدبنا وديننا وفقهنا ومجتمعنا ؛ ووفد بعضهم إلى بلادنا ، وتوسلوا إلى ذلك بشتى الوسائل : فعين قسم منهم فى البدء قناصل لدى الدولة العلية فى العراق وبلاد الشام ومصر وسائر الشمال الإفريقى ، ثم لدى الدولة العلوية فى مصر خاصة . وجاء بعضهم سياحاً يجوسون خلال ديارنا متعرضين لأخطار المهالك مدّعين أن غايتهم المتعة الشخصية والفائدة العلمية المجردة ؛ وجاءت طائفة أخرى تعلن أن هدى الإسلام قد انتشر فى قلوبهم وعقولهم ، فأقاموا بين ظهرانينا ، ووصلوا إلى

ما لم يستطع غيرهم أن يصل إليه ، وجاء آخرون مرتدين مسوح رجال  
المدن إلى الأديرة والكنائس المبهوثة في وطننا ، وأنشأوا المدارس والمستشفيات  
والجمعيات الخيرية الطائفية .

ودرسنا جميع هؤلاء دراسة دقيقة عميقة : عرفوا ماضيها وحاضرنا ؛  
رأوا آثارنا ونقوشنا ومخطوطات تراثنا ، ونقلوا إلى بلادهم ما استطاعوا أن  
ينالوه منها بالسرقة أو الاستهزاء أو الشراء ، ووضعوها هناك بين أيدي  
الذين بقوا في بلادهم عاكفين على الدراسة .

وعرفوا طبقاتنا الاجتماعية والاقتصادية ، وطوائفنا الدينية ، وفرقنا  
المذهبية ، ولحجاتنا المحلية ، وتعمقوا الفروق وأوجه الخلاف بين طبقة وطبقة  
وطائفة وطائفة وفرقة وفرقة وطبقة وطبقة ، وتتبعوا نشأة كل ذلك وتطوره ،  
وإمكانات الاستفادة منه وتوسيعه واستغلاله .

ثم درسوا أرضنا : ظهرها وبطنها ، فعرفوا كل مدينة وقريه وسهل وتل  
وجبل وصحراء ، عرفوا طرق مواصلاتنا - سواء الحديثة أو التاريخية القديمة  
منها ، وثمرتنا الزراعية والحيوانية والمعدنية .

وكتبوا كل ذلك في تقارير وكتب ، درست بعناية دقيقة ، واستخرجت  
منها مفاتيح هذا الوطن العربي : مفاتيح السكان ، ومفاتيح المكان .  
ووضعوها بين أيديهم ، وبدأوا غزوهم .

ولم تستطع بصائرنا المظلمة أن ترى شيئاً ، وإن كانت أبصارنا قد  
رأت الجندى الغازي وحده ، فظنناه هو أداة الغزو الوحيدة ، فصرفنا همنا  
إلى محاربتة وحده ، وجعلنا كل غايتنا في إجلاله عن ديارنا . ونسينا أن

الغزو العسكرى ليس غاية قائمة بنفسها ، وإنما هو وسيلة يتوسل بها لتحقيق أهداف الاستعمار الحقيقية ، وحين تتحقق هذه الأهداف يجلو الجندى الغازى ، ويبقى الغزو نفسه .

بدأ الغزو العسكرى إذن بعد أن مهد له وحفّ به وواكبه غزو علمى ، جنوده هؤلاء المستشرقون سواء منهم العلماء الذين أقاموا فى بلادهم ، والقتناصل والسياح ورجال الدين الوافدون إلى بلادنا .

### ( ٣ )

وبتحقيق الفتح العسكرى بدأ الغزو العلمى مرحلة جديدة ، هدفها تحقيق مصالحة الاستعمار الحقيقية عميقاً أحياناً مستمراً من غير حاجته إلى بقاء الجندى الغازى نفسه . فقد كانوا يعلمون — من تاريخ الاستعمار الطويل — أن الجندى المحتل استغزاز مباشر له كيان مادى يرى ويسمع ويحس ، فيشير فى النفس الضعيفة والحقد ، ويدفع إلى المقاومة والقتال ، وبذلك يصبح وجوده — بعد إتمام الفتح وتوطيد أركانه المادية — مهدداً للمصالح الاستعمارية بدل أن يكون مثبتاً لها دائماً عنها . فأرادوا أن يبقى الاستعمار نفسه ، وتزول أدواته المادية العسكرية . هنا بدأت المرحلة التالية من عمل المستشرقين : وجدوا أن الطريقة المثلى لتحقيق ذلك الهدف هى القضاء على مقومات البلاد المستعمرة ، واقتطاعها من جنودها الأصيلة التى تمدّها بالغذاء الطبيعى من باطن تربتها ، وإفناء أصولها السليمة

التي تضم عناصر الحياة والنماء ، بحيث تبقى جذعاً مبتوراً قائماً على سطح الأرض له فروع وأغصان يحسب نفسه ويحسبه الراؤون شجرة نامية ثابتة الجذور والأصول . ثم يقوم المستشرقون - هؤلاء الصناع الماهرون - بتجربة جديدة من تجارب علمهم : يحتلبون جذوراً جديدة من تربتهم هم ، ويضعونها في مكان الجذور الأصلية الأولى ، ويصلونها بجذع الشجرة ، ويمسكون بأيديهم السباد والماء : يغذونها ويروونها كما يريدون وحين يشاؤون تغذية ورياً صناعيين يخلطون بالغذاء والماء بنور الضعف والخرال ، فتنمو الشجرة نمواً غير طبيعي ، لا يلبث هذا النمو نفسه أن يحتاج إلى علاج جديد ، فتحقن الشجرة بحقن صناعية ، وتطعم بأنواع مستوردة من النبات ، وترش بضراب من المساحيق فتكتسب من جديد نمواً ظاهرياً وتمتدداً شكلياً تحسبه حياة متطورة سليمة ، فتصرف عن إدراك السبب الحقيقي الأصيل لما تعاني .

( ٤ )

أدرك الاستعمار القوى الكامنة في وحدة هذه الأمة : وحدة نضالها المشترك ، ووحدة وطنها الشاسع ، ووحدة لغتها الجامعة ، ووحدة دينها ذي الرسالة الحية الخالدة ، ووحدة مجتمعيها المتناسك المترابط . فكان أول ما عملوه أن جزّعوا هذا الوطن الواحد وجعلوه أوطاناً متعددة في كل بقعة منه دولة مستقلة لها حدودها الخاصة . ومع أن بريطانيا كانت تحكم

العراق وفلسطين وشرق الأردن ومصر ، وكانت فرنسا تحكم سورية ولبنان وتونس والجزائر ومراكش فقد اصطنعتنا في كل قطر منها حكومة ، وأقامتا بينها الحواجز فلا يجتاز عربي من جزء من وطنه إلى جزء آخر إلا بجواز خاص للمرور ، وفرضتا على تبادل السلع مكوساً وقيوداً وسكّتا في كل قطر نقداً خاصاً ، وافتعلتا له اقتصاداً متميزاً وجنلتا له جنداً مستقلاً ، وضربتا على عقول أبنائه ألواناً مختلطة متباينة من التعليم والثقافة ، وجعلتا في كل قطر حكماً تعحيط بهم شرائع من المنتفعين الذين ارتبطت مصالحهم بهذه التجزئة ليصبحوا حريصين على قيام كيان مستقل في كل قطر ، وكانت الدولتان ترميان من وراء ذلك كله إلى قيام مجتمعات منفصلة متباينة في كل قطر لتبقى هزياً كسيحة لا تقوى على النضال .

وبدأ المستشرقون بركام هائل من المؤلفات عن الدين الإسلامي أولاً ، فقد علموا أنه ركن أصيل من مقومات هذه الأمة ، فحضروا من حوله ، وبدأوا يهون عليه بمعاولهم ليقلقلوه ويقتلعوه ، وألبسوا ذلك كاه أثواباً علمية تخذع : بحثوا في القرآن ، وأخذوا منه الآيات المتشابهة والمنسوخة ، ودرسوها ، واستنتجوا منها ، وحكموا على القرآن كله ، ثم استقصوا الأخبار الضعيفة والروايات الشاذة ، وتصيدوا أقوال بعض الأقدمين ، واتخذوا من الحالة المفردة قاعدة ، ومن الخبر الخاص حكماً عاماً ، وطرزوا أبحاثهم بدراسات مقارنة : دينية وتاريخية ، ووشوها بدراسات سيكولوجية وبيولوجية وجنسية عن حياة الرسول وحياة صحابته الأولين ، وأصدروا في كل ذلك كتباً وأبحاثاً ظاهرها المنهج العلمي السليم والبحث الجامعي

العميق ، فدرّسوها لنا في جامعاتهم بلغاتهم ، ثم درّسوها لنا في جامعاتنا مترجمة أو غير مترجمة ، حتى ثقّفناها مشدوهين مبهورين بهذا العلم الثمين . وتلقّفناها عنهم ، وأذعناها في دروسنا وكتبنا ومحاضراتنا . ولما اطمأنوا إلى أنهم قد أدّوا الرسالة كاملة ، وحققوا غايتهم غير منقوصة ، وسرت في نفوسنا وعقولنا سموهم ( العالمية ! ) حتى صرنا نذكر بعقولهم ، ونبحث بطريقتهم ، ونؤلف على غرارهم — حين اطمأنوا إلى كل ذلك ، اختفوا هم وصدّرونا نحن في الميدان .

وكان رجيل آخر من هؤلاء المستشرقين قد وجه عنايته في الوقت نفسه إلى ركن أصيل آخر من مقوماتنا ، إلى جذر عميق من جذور كياننا ووجودنا : هو ثقافتنا العربية : تاريخنا وأدبنا ولغتنا ، فحفروا من حولها أيضاً ، وأهروا عليها بمعاولهم ليقتلعوها ويقتلعوها بالأسلوب العلمي والمنهج الجامعي ذاتيهما . فألفوا في ذلك كتباً وأبحاثاً ، نحلاصتها : أن الأمة العربية كانت أمة جاهلة صحراوية بدائية ، اضطرت تحت وطأة الظروف الاقتصادية والاجتماعية إلى أن تغزو بقوة السيف البلاد المجاورة لها وتستعمرها ، ولم تستطع أن تكون لها حضارة ، وإنما جمعت فتاتاً من الحضارات القديمة وخاصة اليونانية والرومانية والفارسية ، واغتذت عليها واجترتها . وتاريخها الطويل إنما هو سلسلة من الحصومات والخلافات وجباية الأموال .

أما أدبها فالفنطى سطحي لا قيمة له ولا طائل من ورائه ، ودراسته عبث وهو وضياع وقت لا تليق بمن يحترم فكره وثقافته . وأما لغتها فمعقدة

متخلفة غير نامية ، عاجزة عن أن تسير ركب الحضارة والحياة الحديثة ، أما اللهجات المحلية العامية فهي تطور نام طبيعي ، ويجب أن تصبح لغات مكتوبة نعتاض بها عن اللغة الفصحى الواحدة .

ولم يكن هذا الهجوم دائماً سافراً واضحاً ، ولم يكن جميع المستشرقين يذيعونه وينشرونه في آن واحد ، وإلا لكانت المؤامرة مكشوفة مفصوحة . بل إن بعض المستشرقين قد نصب نفسه لمخاصمة زملائه دفاعاً عن العروبة والإسلام لزيادة القلق وإشاعة الاضطراب ، وإمعاناً في التويه والتضليل . فنحن مثلاً عند فريق من المستشرقين أمة مادية جافية ، كسيحة الخيال ، محدودة الآفاق ، لأن بيئتنا الطبيعية قد حكمت علينا بذلك ، وقد بلغت بنا المادية منزلة جعلتنا جماعة من التجار ، حتى إن لفظة « العربي » صارت تعني عندهم إما تاجراً وإما لصاً .

ولكن فريقاً آخر من المستشرقين يستشيط غضباً لهذه الأوصاف ، ويدافع عنا دفاعاً قوياً ، ويرانا أمة روحانية مجنحة الخيال ، لا صلاح لأمرنا إذا جرفت تيارات الحضارة المادية الحديثة ، ولا بد لنا لكي نعيد مجدنا من أن نتمسك بروحانياتنا وبخيالنا ، وهي في رأيهم أصول مقوماتنا وكياننا ، وحين يتحدث المستشرقون هذا الحديث تكاد تلمس في ألفاظهم الاستغراق في حبنا ، والاستماتة في الدفاع عنا ، وهم يقصدون بالروحانيات « الكشف الباطني والتجرد عن المادة » ، أما « التفكير العتلي القائم على المشاهدة الحسية والتجربة العملية والنظرة الموضوعية » فهي أمور من خصائص الأمم الغربية التي ضلت الطريق وأفسدتها

الحضارة ! بل إنهم ليتظاهرون بالدعوة إلى أنه « لا سبيل إلى إنقاذ الحضارة البشرية من التفسخ والأنهيار إلا بانتصار روحانية الشرق » ويؤكد هذا الفريق من المستشرقين حديثهم العاطفي الودي بأعمال تدعم حبهم لنا وتجردهم في خدمتنا ، فتراهم يضيعون كثيراً من الوقت وينفقون كثيراً من المال في نشر بعض تراثنا القديم ، فإذا نظرت فيما ينشرون وجدت أكثره من مؤلفات المتصوفين وخاصة المنود . وقد جاء مندوب عن إحدى المؤسسات الأجنبية منذ بضع سنوات إلى الجامعة السورية بدمشق ، وتحدث عن أهداف مؤسسته واستعدادها لمساعدة المشروعات الثقافية في جميع البلدان . فلما ذكر له بعض الأساتذة حاجة الجامعة السورية إلى المختبرات والوسائل الفنية والأدوات العلمية أخذ المندوب يصطنع المعاذير ويعدد الصعوبات ، ويعلق أمر المساعدة على موافقة مجلس إدارة المؤسسة . ولكن الحديث بعد ذلك انتقل إلى موضوع التصرف الإسلامي : فلم يتردد المندوب لحظة في قطع الوعود بالمساعدة إذا تأسس معهد للدراسات يعني بهذا الموضوع الخطير (١) .

وقد ألف برنارد لويس أستاذ تاريخ الشرق الأوسط في جامعة لندن كتاباً في سنة ١٩٥٠ عنوانه « العرب في التاريخ » ، قرّظه أحد الأعلام من أساتذة التاريخ في جامعاتنا ، وأشاد بروح المؤلف العلمية المحايدة التي أنصفت العرب . والقارئ للكتاب يدهش كيف لم يتنبه مؤرخنا العربي

(١) انظر الفصل القيم الذي كتبه الدكتور كامل عياد بعنوان « مستقبل الثقافة في المجتمع العربي » في كتاب « العالم العربي » ج ٢ ، ص : ١٤٣ - ١٧٦ ، من مطبوعات الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية سنة ١٩٥٢ .

الكبير لما بثه المؤلف من سموم في خلال تظاهرة بالمنهج العلمي . لقد مهد المؤلف بين يدي كتابه بفصل استهله بالتساؤل عن « من هو العربي » ؟ ثم بحث هذا التساؤل من ناحية الدم والعنصر ، واللغة ، والدين ، والتاريخ ، والجنسية في جوازات السفر في أيامنا هذه ؛ وانتهى من كل ذلك إلى غاية الحقيقة وهي التشكيك في وجود أمة موحدة تدعى الأمة العربية لما كيانها ومقوماتها . وهو ما لم يصرح به تصريحاً ، وإنما اكتفى بالإيحاء والتلميح من خلال سرد يبدو في ظاهره أنه بحث علمي مجرد بل بحث علمي ينصف العرب ! ! (١)

ومستشرق آخر يعد رأساً بين المستشرقين ليومنا هذا ، وهو مشهور فيما يؤلف عن المسلمين والعرب بتحزري المنهج العلمي ، وأحاديثه كلها تفيض حباً للعرب والمسلمين ودفاعاً عنهم ، حتى ليكاد المرء يحس بأنه قد تجرد للعلم وحده حقاً . هذا المستشرق ألف في سنة ١٩٤٠ كتاباً عنوانه « العرب » وهي رسالة صغيرة ولكنها مركزة تركيزاً شديداً جمع فيها في فصول متعاقبة الخلاف والفروق بين العرب من حيث : الأصل والجنس ، واللغة ، والدين ، والمذاهب ، والموقع الجغرافي ، ووضح ما في نفس كل فريق على الآخر ، ونشأة هذه الخلافات ، فكأنما أراد أن يكون البحث مفتاحاً يضعه بين يدي قومه ليستطيعوا استخدامه في استغلال هذه الخلافات والفروق وتوسيعها .

(١) انظر الفصل الأول من كتاب « أزمة الفكر العربي » للدكتور إسحق موسى الحسيني - دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٥٤ فنيه تعقيب على الكتاب المذكور .

ولا يتسع المجال لإيراد الأمثلة ، وإنما أردت أن أوضح أن هؤلاء المستشرقين لم يكونوا كلهم يواجهوننا بهجومهم السافر ، وإنما كان فريق منهم يتظاهر بالإنصاف والحيدة والتجرد للعالم وحده حتى يستطيع أن يغلف آراءه تغليفاً يجعلها مستساغة مقبولة لدينا ، بل يجعلنا نتبناها ونعتنقها ؛ هكذا نحدعنا .

وقد نجحوا في خططهم ، واستطاعوا أن يتغلغلوا إلى أعماق جذورنا الأولى : جذور كيان أمتنا ومقوماتها ، ويزعزعوها . ولعلنا جميعاً نعاني في نفوسنا وعقولنا من نتائج هذه الزعزعة ، فنحن جميعاً من ضحايا هذه التجارب العلمية المقصودة التي انتهت بنا جميعاً إلى الشك والتناق والاضطراب وانتهت بفريق منا إلى الجحود والإنكار والكفر بهذه الأمة : دينها وماضيها ولغتها وتراثها الأدبي . بل لقد صار من بقيت في نفسه بقية من اعتزاز بهذه الأمة وإيمان بها - يخشى من إعلان اعتزازه والمجاهرة بإيمانه لئلا يوصف بالرجعية والجنسود والتأخر .

( ٥ )

كانت المرحلة الأولى من عمل الاستعمار في بلادنا تجزئة وطننا العربي الواحد إلى أوطان متعددة ذات حكومات ودول مختلفة لها نظم اقتصادية واجتماعية وسياسية وثقافية تعليمية متباينة . ثم كانت المرحلة الثانية إشاعة الشك في نفوسنا ونشر التناق في عقولنا وزعزعة إيماننا بمقومات

وجود أمتنا وكيانها من دين ولغة وتراث فكري وتاريخ مجيد . ثم انتقلوا إلى المرحلة الثالثة - أو لعلمهم انتقلوا إلى المرحلة الثالثة في أثناء عملهم في المرحلتين الأوليين فسارت المراحل الثلاث جنباً إلى جنب :

مضوا يضعون مكان كل جذر أصيل يفتلهونه جذراً مجتلباً من تربتهم هم ، جذراً صناعياً ، فيه بعض عروق من مظاهر الحضارة والحياة الحديثة وغرسوه في تربتنا ، وألقوا في روعنا ألا حياة لنا إلا إذا استمددنا الغذاء والماء عن طريق هذه الجذور . فرضوا علينا مظاهر نظم حياتهم ، مظاهرها فقط : في نظام الحكم ، وفي نظام التعليم ، وفي الحياة الاجتماعية . ودأبوا في صمت وسكون وصبر يعملون عملاً مستتراً خفياً حتى جعلوا منا خالقاً مشوهاً : نفكر بعقول مستوردة ، ونحسّ بنفوس مستعارة : ونرى بأعين زجاجية ، ونسمع بأذان صناعية . . . أصبحنا شيئاً عجيباً ، عمجزنا عن أن نكون أنفسنا . وقصرنا عن أن نكون غيرنا ، وبقينا هكذا ضائعين حائرين مضطربين ، أشبه بذلك الغراب الذي أراد أن يحاكي مشية الطاووس فنسى مشيته وعمجز عن محاكاة الطاووس . ما أكثر الغربان فينا ! وفي حياتنا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية : مضوا يقدمون لنا مشكلات مقصودة منتعلة ، تصنع من أجلانا صناعة دقيقة ، على أيدي مهرة مختصين ، تستخدم فيها أحدث وسائل العلم بعد تجارب عدة ودراسات طويلة ، حتى إذا تمّ صنعها غلفت تغليفاً أنيقاً ، وربطت بأشرطة ملونة زاهية ، وصدرت إلينا بضاعة شائقة رائجة ، لا تكاد تصل أسواقنا حتى تهافت عليها في جد واهتمام يستغرقان جهنماً ويستنفدان طاقتنا ، فإذا ما أوشكنا أن نستهلكها ، وقاربت النفاذ . كان المهرة المختصون قد

أتموا صنع بضاعة جديدة - مشكلات جديدة - أحدث من الأولى ،  
وأتمّ تكويريناً ، وأجمل طرازاً ، فلا يكادون يتدفقون بها إلينا حتى نتهاقت  
عليها من جديد .

إن أكثر مشكلاتنا التي نعانيها اليوم وتغتمدي منا وتتمتات علينا حتى  
لتكاد تستنزف دمنا ، ليست مشكلات أصيلة ، منبثقة عن مجتمعنا ،  
ناجحة من حاجتنا الحقيقية ، وإنما هي مشكلات مصنوعة مزيفة ، تلقى  
إلينا إلقاء متعمداً . لتنتهي بها ، وتوجه إليها ، وننصرف عن إدراك  
مشكلاتنا الحقيقية الأصيلة ، فتكون بذلك معوقات في طريق سيرنا تستنفد  
جهودنا في محاولة التغلب عليها ، وتستهلك طاقتنا في تذليلها وتعبيدها .

وقد بلغ هؤلاء الصناع المهرة منزلة رفيعة من البراعة والإتقان في التويه  
والخداع ، حتى إنهم أحياناً ليعرفون أن الأزمة قد بلغت مداها ، وأن  
غليان النفوس قد وصل إلى درجة لم يبق بعدها إلا الانفجار ، فسرعان  
ما يقدمون لنا حلاً لإحدى هذه المشكلات ، صنعوه هم أيضاً صناعة ،  
ودبروه تدبيراً ، بحيث يكون هذا الحل نفسه - بعد زمن - مشكلة جديدة .  
ثم يوشحون إلينا بالحل لإحياء من بعيد وفي حذر شديد ، بحيث يوهموننا أننا  
نحن أصحاب الحل ، وأنا قد بذلنا جهداً كبيراً حتى حققنا انتصاراً  
فصحنماً ، وكسبنا حقاً جديداً ، فهدأ النفوس وتستكين ، بعد أن فرغت  
شحنتها ، وصرفت امتلاءها ، ويكونون قد طبقوا علينا وسائل علمهم  
التجريبي حين يفرغون شحنة كهربائية ، أو يفتحون صمام الأمن في  
المرجل خشية ضغط البخار وانفجار الإناء .

(٦)

ولم يكتفوا بذلك ، لم يكتفوا بالمشكلات التي تنجم بالضرورة عن المرحلتين الأوليين من عملهم الدؤوب . فقد وجدوا فينا بقية من جذور عميقة ، ضاربة في باطن الأرض ، لم يستطيعوا اقتلاعها من غير أن يسقط جذع الشجرة القائم على سطح الأرض ، وهم لا يريدون لهذا الجذع أن يسقط ، وإنما تقتضى مصالحهم أن يبقى قائماً أجوف في الفراغ ، ووجدوا في هذه الجذور الباقية العميقة الضاربة في باطن الأرض وفرة وفيرة من الخصب والحياة والنماء ، ستركو وتمتد وتستطيل وتتكاثر فتعوضنا عما قلناه وعما اقتلعوه . ثم وجدوا أن ما أشاعوه فينا من شك وقلق واضطراب — على خطره — لم يستطع أن يهوى بنا جميعاً إلى الجحود والكفر والإنكار وراعهم ما أبصروا فينا من تفتق الوعي ، وانسكاب النور ، وتجمع قوى الوحدة والنضال . . . فبدأوا عملهم في المرحلة الرابعة ، جاؤوا بصخور صلبة ووضعوها تحت هذه الجذور الباقية ومن حولها لتوقف نموها ، وتعوق امتدادها ، وتشل حركتها ، وتعطل قوة الحياة فيها ، فكانت قضية فلسطين وخطق إسرائيل الصخرة الكبرى التي ألتموا بها . قضية فلسطين مولود غير طبيعي ، أي : أنها لم تكن نتاج حاجة حقيقية في داخل فلسطين نفسها ، بل لم يكن وضع اليهود في الداخل يتطلبها ، وإنما هي مؤامرة

مصنوعة مذبذبة ، أتم الاستعمار صنعها وتديرها منذ نحو أربعين سنة — على أنها حلقة في سلسلة لا تنفصا إلا حين تدعو الحاجة إلى ذلك ، حين يحس الاستعمار أن مراحل عمله السابقة كلها لم تأت بالنتائج المنشودة ، ولذلك بقيت هذه الحلقة في مراحل الإعداد والتهيئة والتغيير والتعديل والتربص بالفرص إلى أن نفذت بعد وضعها بنحو ثلاثين سنة ، لتستهلك قوتنا وتفرغ طاقتنا وتستنفد ماء الحياة فينا .

ونجحوا إلى حين ، ثم أدركوا أن كل آثار مؤامراتهم ودسائسهم موقوتة ، وهالهم ما رأوا من النذر بانبعثت أمة العرب وانطلقها ، وتنبهها لكل ما يراد بها ، وأصبحت خططهم عارية مكشوفة لا تنطلي على الوعي المتفتح ، فلم يجدوا مفرأ من العدوان السافر الغادر ، فكان الهجوم الأتم الأخير .

إن قوة الصراع فينا لتزداد وتتجمع في عناد وتصميم لأن إرادة الحياة فينا أقوى من وسائل الإفناء عليهم . ومن أجل هذه القوة الكامنة الهائلة في إرادة الأمة العربية للبقاء والحياة — سيزيدون في كل عام من صناعة المشكلات — المستترة والسافرة ، ويحورون بعض صورها ، ويبدلون مظاهرها وأساليبها . ولكن وعينا كنفيل بفضح جميع دسائسهم وتفويت الفرص عليهم ، ووحدة نضالنا كقبيلة بأن تكتب لنا النصر حتى تتسلم أمتنا شعلة الحضارة من جديد وتستأنف أداء رسالتها .